مع العارفين

الشيخ محمد الفاتح قريب الله

للدكتور مصطفى كمال وصفى الرفاعى

المستشار بمجلس الدولة

شاهدت فيه صوفية السلف الصالح . وعز الإسلام ونور الإيمان ولم أعلم كيف كان التصوف فى أيامه الخالية ، ولا كيف كانت صورته ، حتى رأيت مثلا حيالها يخرج لى مجسداً وكأنه من بطن التاريخ ، كأنه خارج من رسالة القشيرى أو من إحياء الغزالى فى صورة سيدى الشيخ التقى النقى الورع الكامل ، محمد الفاتح قريب الله .

كنت مسافراً إلى السودان ، فى ندب للتدريس بالجامعة فقابلت أخى المغفور له الشيخ عبد الله المنادبلى . فأوصانى بزيارة الشيخ الفاتح وقال لى هو من إخواننا فى الله وستجده فى خدمتك فى كل ما تطلب . ولما كان الاتصال برجال الدين لمثلى ضرورة لا بد منها ، فقد سارعت إلى السؤال عن الشيخ الفاتح فور وصولى إلى الخرطوم . فعلمت أنه فى أم درمان بحى ودنوباوى وقصدته صباح يوم من أيام الجمعة فاستقبلنى بأدب شديد فيه بعض التحفظ . فان صفاتى الدنيوية ، تضع فى سبيلى العقبات عند رجال الله الصادقين حتى يطمئنوا إلى عدم اعتبارها فى حقيقتى ، وعدم تأثيرها فى جوهرى .

وجدته جميل تقاطيع الوجه ، جمالا غير معتاد . يزين وجهه ذقن صغيرة محكمة ، وترتفع على هامته عمامة كأنها تاج مضىء نوراً كثير الصمت نادر الكلام . إذا ماتكلم فطابع كلامه الصدق والجد والاخلاص . حازم حاسم فى لفظه الوجيز المحكم السريع كريم فائق الكرم . لم أذهب لمنزله فى أى وقت إلا احتجزنى لطعام . ان كان صباحاً قدم لى افطارا ؛ وان كان عصرا استبقانى لعشاء ولا يتركنى أغادر بيته إلا إذا استدعى سيارة الأجرة بالتليفون ، فينقدها أجرها سلفا لتوصلنى إلى باب منزلى .

غائب مع الله لا يكاد يصحو ويفيق إلا إذا وجهت إليه الحديث ، وعند ذلك

تعجب من سرعة صحوه ودقة إدراكه وفهمه بسيط الملبس . بسيط الثياب . بسيط التعبير : كامل . عالم الشريعة والدين . فيه جمال الدين والدنيا . زكى الرائحة ، أنيق المنظر .

دخلت منزله فإذا هو رباط صوفى بكل مافى هذه الكلمة من معنى . وجدت منزله أفنية متداخلة . تربط بينها ممرات وأروقة تشرف عليها خلوات كثيرة وفى هذه الخلوات يقيم من تطيب له الاقامة لا يسأله أحد من هو ويمكث كما يشاء فما يشعر أهل الدار بأن احدى الغرف فيها واحد حتى يوالده بالطعام والخدمة حتى يرحل . . أيا كان هذا الوافد . وفى أول المسكن فناء كبير فيه جامع تقام فيه الشعائر . والجمعة ، وفيه قبر والده الشيخ قريب الله رحمه الله . وفى طرفه الآخر فناء آخر فيه حجرات الشيخ التى يقضى فيها عادة معظم أوقاته . وعلى ما فيها من مقاعد ، فانك لا تكاد تراه إلا جالساً على الأرض .

قلت فى نفسى وما أدرانى مقامه ؟

أردت أن أعرف ذلك فمسكت المسبحة وربطت نفسى به وذكرت الله فغبت عن الوجود . وكدت لا أطيق الحال الذى لبسنى إذا ربطت نفسى بهذا الولى الطاهر . ورأيت أن تلاميذه ومريديه قد سرت فيهم روحه حتى صار كل منهم يشبهه فكلهم يتكلم ككلامه . وكلهم يلبس كزيه . وكلهم يمشى مشيته . وإذا رأيت أحدهم مقبلا من بعيد حسبته الشيخ نفسه . فكأن المكان كله قد امتلأ بمئات من الفاتح قريب الله . . وكل قادم عليك كأنه الشيخ نفسه .

منقطع تمام الانقطاع للتربية والطريقة لا يصرفه عنها صارف يقيم الصلوات الخمس فى الجامع ، ويوالون الاذكار والأوراد ويتابع مريديه بالزيارة والسؤال والاستفسار ويتعهدهم فى كل الأحوال .

وجدت أن ثماره يانعة ، ونتائج جهوده ظاهرة مبشرة ، وقد نجب مريدوه وصحت فيهم علامات الفلاح . قلت له ياسيدى أولادك فى خير وبركة بسببك . فأجابنى بتأكيد لا شك فى ذلك يا دكتور . . ذلك بفضل من الله يؤتيه من يشاء .

عزيز . . ممتر بالله قوى فى إيمانه وثقته برسالته .

وعدته مرة للغذاء عندى ردا لآلاف جمائله . وقلت له يصحب مع الشيخ أحمد البدرى والشيخ يوسف حمد النيل . وأخبرت زوجتى بأننا سنكون أربعة على المائدة ثم حضر ببالى أن أدعو آخر . فذهبت إليه فقلت له ان ينتقل عندى للغذاء . فقال لى أن الشيخ قد دعاه فعلا ؟ ثم خطر ببالى أدعو آخر أيضاً فقال لى أن الشيخ دعاه كذلك . قلت فى نفسى لعله دعا كل من يعرفه وفعلا لم يخب حدسى . اذ أننا فى يوم الغداء وجدت أن الشيخ قد أقبل فى سيارة محشوة بالمدعوين ، أعقبتها أخرى غير من وفدوا فرادى . ولم نزل يقبل علينا الضيوف حتى زادوا على الثلاثين ، وزوجتى منزعجة من قلة الطعام فهى لا تعمل حسابا لذلك . فطيبت خاطرها وقلت لها أن المفهوم هنا أننا لم نعمل حسابا لهذا العدد ، وأنهم وافدون اكراما لنا مع الشيخ . ووضعنا الطعام وأكلنا ومازلنا نأكل والطعام لا ينقص وانتهينا من الأكل ، وكأن الصحون كما هى وعجبت كيف تبقى كل ذلك وكأنه لم يمس مع أننا كنا جميعاً مقبلون على الطعام ولم ندخر وسعاً فى القضاء عليه .

وكان الشيخ أحمد البدوى قد أحضر معه يومها بخورا جميلا فجلسنا قليلا نتسامر وقضينا أعذب الوقت وأجمله . ولما شكرته على مقدمه قال لى « هذا من حقوقك علينا يا دكتور »

وأذكر يوم سفرى إذ حضر بنفسه لمنزلى لتحيتى وهو ينظر إلى بعيونه الجميلة الحزينة وكان رائعاً فى ملابسه البيضاء وعمته المنيرة ثم انتهت الزيارة ونزل وركب السيارة وظللت أنظر إلى السيارة حتى صارت نقطة فى آخر الطريق ثم تحولت فاختفت فبكيت . . . لم يبق لى إلا أراه فى أحلامى وهكذا نراهم وتختلط أنفاسنا وتتعامق أرواحنا ثم يختفون ولا يتركون لنا إلا أشباحهم فى الرؤيا . . . فنفرح بها ، وتغيب عنا ونشتاق اليهم .

إلى هذا القلب الكبير الجامع لروح الكون المحرك لحركاته وسكناته ، إلى ذلك المهيمن علينا الذى تسرى روحه فينا جميعاً . . . إلى تلك العيون الجميلة

التى لاتنام ، والتى تنظر إلينا جميعاً نظرات الحنان ، والأسى لحالنا ، والرجاء فينا ، التى قدرت وحددت وصبرت ... إليه هو ... الذى لم يخفق قلب إلا من روحه ولم ينبت أمل ولا رجاء ولا عطف ولا حب ولا حنان إلا منه . . إليه هو أشكو حالى وغربتى وانقطاعى عن من أحب . ها هوالشيخ سالم الزيانى فى ليبيا . والشيخ الفاتح فى السودان والشيخ الكتانى فى سوريا ، وأنا هنا منقطع عنهم إلى أن يقضى الله أمراً كان مفعولا فيجتمع ان شاء الله فى مقره الحق على بساطه الكريم عندما يأذن الله فى أسعد الأوقات ان شاء الله وصدق رسول الله الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف ».